الدرس السابع والعشرون

تفسير سورة المزمل [٩: ١٧]

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)}

قال الله عز وجل: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ}، وهذا التعقيب بعد الأمر بذكره وعبادته تنويهٌ باستحقاقه سبحانه وتعالى لإخلاص العبادة له لأنه الرب، (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) المشرق والمغرب هنا اسم جنس، يعني رب المشارق والمغارب فكل مشرق وكل مغرب في أي موضع من الأرض، في أي ساعة من الساعات فالله تعالى خالقه ومالكه ومدبره، فهذه هي حقيقة الربوبية، تدور حول هذه المعاني الثلاث؛ الخلق والملك والتدبير، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هكذا يقترن توحيد الربوبية بتوحيد الألوهية، أي لا معبود بحق إلا هو، فكل عبودية مزعومة مدّعاه فهي باطلة إلا عبوديته سبحانه وبحمده وهذه كلمة التوحيد التي هي أول الإسلام وأوسطه وآخره، فمن مات وآخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة، إلا أنها يجب أن تقال بعلم ويقين وصدق وإخلاص ومحبة وصحية وقبولًا وانقياد، فلا يقولها الإنسان بمجرد لسانه دون أن يعي معناها، من قالها بلسانه

وهو لا يعي معناها ولا يعمل بمقتضاها لم تغن شيئًا ولو ملأ الجو تهليلا يجب أن يعلم أن مقتضى قوله لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، فإن الإله هو الذي تأهله القلوب محبة وتعظيماً ، تأهله و تنجذب إليه و تتعلق به فهذا لا يكون إلا لله الواحد القهّار فحينئذٍ يخلص المحبة والخوف الرجاء لله تعالى ، وهكذا بقية أعمال القلوب {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلً}، التوكل مظهر للعبودية وأي مظهر! لأن التوكل هو اعتماد القلب على الله عز وجل في جلب المصالح ودفع المضار مع فعل الأسباب التي نصبها الله أسبابا فلذلك نجد الارتباط الوثيق بين التوكل والإيمان، قال تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]، وقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨] وقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]، وقال: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣]، فكون القلب يفزع إلى الله عز وجل دليل على حسن ظنه بالله وصدق تعبده له ، ومن يفزع قلبه يمنة ويسرة في المضائق ويلتفت إلى المخلوقين ، دليل على ضعف الإيمان أول ما ينبغي أن يتبادر إلى القلب في المضائق والمآزق الفزع إلى الله عز وجل ثم بعد ذلك ينظر إلى الأسباب التي نصبها الله أسبابًا حساً وشرعاً ويفعلها لأن الله نصبها، لا لأنها مستقلة بالتأثير.

فهذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية والألوهية والتوكل: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ولما قدم بهذه الجمل العظيمة المتتالية وندب نبيه إلى قيام الليل والصبر عليه حينئذٍ هيأهُ إلى التصبير على ما يلقى من قومه وقال:

{وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ}، أي من هذه التهم الجزاف والألقاب السيئة التي ينبزونك بها، دون مبالاة كالسحر و الكذب والكهانة وغيرها، ولاريب أنها تقدح النفس وتخدشها ولكن ليس ثَمّ إلا الصبر. ومنزلة الصبر في الدين كمنزلة الرأس في الجسد. والصبر من أشرف المقامات وهو ثلاث أنواع صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله وصبر على أقدار الله المؤلمة، فالصبر على طاعة الله أن يلزم الإنسان نفسه أوامر الله والصبر عن معصية الله أن يمسك الإنسان نفسه عن انتهاك حرمات الله والصبر على أقدار الله المؤلمة أن يتلقى ما يقضيه الله تعالى من الأمور الموجعة برضى ويقين، ويمسك لسانه وجوارحه من أن تخرج إلى دعوى الجاهلية. وقال عز وجل في مواضع: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]، فما من رسول إلا وجه إليه سيل من التهم، وصنوف من الأذى لكنهم كانوا يصبرون، فأمر الله نبيه بالصبر على هذه الدعاوى التي ألقيت عليه ونيل منه بها.

{وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}: الهجر الجميل: هو الذي لا عتاب فيه نجد أن الله سبحانه وتعالى يندب إلى التجمل، كما قال: {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: ٨٥] وقال: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [المعارج: ٥]، وقال: {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب: ٤٩] فينبغي أن يكون الهجر جميلاً، بحيث لا ينحط الصابر إلى نوع من العتاب والمؤاخذة والمحاسبة بل يحتمل. ويسعه أن يدفع

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

عن نفسه قالة السوء، فلما قال قوم هود لهود عليه السلام: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ} [الأعراف: ٦٦] قال: {يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٦٧] فهذا لا ينافي الصبر الجميل، وليس من مقتضى الصبر أن لا يذب المرء عن عرضه، ولكن لا ينحط ولا ينزل إلى سفاسف الأمور، هكذا أدب الله نبيه بهذا الأدب. {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} فحسبك أن يقول رب العالمين: خلِّ بيني وبين هؤلاء. ذرني: يعني دعني أفعل بهم ما يليق بهم.

{أُولِي النَّعْمَةِ}: أي أصحاب التنعم والأشر والبطر وهذا هو الغالب على من انغمس في النعيم، الغالب على من أُترف أنه يقع بينه وبين قبول الحق حجاب، لأن الترف والنعيم يجعل الإنسان ينزع إلى الدنيا ويميل إليها ويتباعد عن الآخرة وعن الأمور التي تخالف هواه، فلذلك كان المترفون غالباً هم أهل النار، والصابرون هم أهل الجنة. قال الله: {وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا}، هذا الذي يتقلبون فيه إنما هو متاع زائل عما قليل يتقشع قال تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣]، وفي هذا ما يُشعر المؤمن بأن ما قد يدهشه من حال أهل الدنيا ينبغي أن لا يزلزل إيمانه بسنن الله الكونية، فإن الله سبحانه وتعالى قد يمتع بعض بني آدم ببعض النعم ليستدرجهم ويستزلهم للتمادي لكنه سبحانه لهم بالمرصاد.

ثم قال تعالى مهدداً وموعداً أعداءه: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً}، أي لو شاء ربك لأخذهم أخذ عزيز مقتدر، لكن الله تعالى حليم يمهل

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ولا يهمل هو سبحانه وتعالى يؤجل العقوبة لحكمه، مع أنه يرى ويسمع ويعلم لكنه سبحانه وتعالى حليم؛ (إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)[1]، فنبه نبيه صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الذين يشغبون عليه ويؤذونهً في القبضة، وأنه لو شاء الله تعالى لأهلكهم: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا}: أي عذاباً مؤلماً موجعاً وجحيمًا في الآخرة وهي النار: {وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} والطعام ذو الغصة هو الغساق والغسلين الذي ورد ذكره في مواضع أخرى في القرآن، وكونه ذا غصة أي يعلق في الحلق فلا هو يهبط ولا هو يخرج.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا}: هذا تذكير باليوم الآخر حتى وإن أفلتوا في هذه الدنيا من عقوبة عاجلة، لكن أمامهم يوم القيامة أين المفر؟

معنى ترجف أي تهتز وتميل، وذكر الله هذا المعنى في مواضع كثيرة وهي من مشاهد القيامة التي ينبغي للموفق أن يستدعيها ويستحضرها ويطلق فكره في تصورها حتى يملأ قلبه خشية لله تعالى كقول الله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [الواقعة: ١ - ٦]، فهذه الأرض القارة تضع عليها يدك فلا تشعر بأي اضطراب، يأتيها ما يأتيها مما وصف الله، إن الناس إذا أصابهم قدر من الزلزال الطارئ الذي يدوم لبضع ثوان تنقلب الأمور رأسًا على عقب، وتنحط البنايات العالية، وتهوي قرى بأكملها في

---

[1] أخرجه البخاري رقم (٤٦٨٦).

جوف الأرض وهو حدث دنيوي، فكيف بيوم القيامة! هذه السلاسل الهائلة من الجبال كجبال الهملايا، وجبال الألب وجبال الأطلس وغيرها من الجبال الشاهقه التي ينقطع دونها، يقول الله عنها: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه: ١٠٥ - ١٠٨] هذا كائن لا محالة.

وأحوال الجبال يوم القيامة متغيرة لأنه يوم طويل، فقد أخبر الله أن الجبال تمر بأطوار متعددة، فتارة تسير وتمر مر السحاب قال تعالى: {وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير: ٣] وقال: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل: ٨٨]، ثم بعد ذلك تُحمل وتُدك كما قال تعالى: {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} [الحاقة: ١٤]، ثم بعد ذلك تدق وتبس فتصبح كثيبا مهيلا كما قال: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [الواقعة: ٥].

وقال هنا: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا} الكثيب: هو الرمل، مهيلًا: منثورًا، تعود هذه الجبال الصُم الصلدة كالرمل المبثوث، (ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ، وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، فَعُهِدَ إِلَيَّ مَتَى كَانَ ذَلِكَ، كَانَتِ السَّاعَةُ مِنَ النَّاسِ)"[٢]، ليس فيها مَعلم لأحد، لا جبل يُرتقى عليه، ولا وادٍ يُهبط إليه، ولا غار يكتن به. ففي هذا إيقاظ وتذكير بهذا الأمر الذي هم مقبلون عليه، ولاريب أن فيه عظةٌ وعبرة لمن كان في قلبه حياة فيستدرك ويؤوب إلى رُشده.

---

(٢) أخرجه أحمد رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه رقم (٤٠٨١).

ثم إن الله سبحانه وتعالى وعظهم بأسلوب آخر من أساليب الموعظة وهو التذكير بالتاريخ والحوادث السابقة فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فعصى فرعون الرسول فأخذناهُ أخذاً وبيلاً} يخبر هؤلاء المخاطبين من مشركي قريش، ومن وراءهم من العرب والأمم برسالة نبيه محمد ﷺ، وشهادته عليهم سواء أمة الدعوة أو أمة الإجابة بالبلاغ المبين، ونظَّر هذا برسالة موسى إلى فرعون وموسى عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل وقصته مبسوطة في مواضع كثيرة من القرآن العظيم، لكن اقتصر في هذا السياق على ما يناسب المقام. {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}، يعني كما أنتم الآن تعصون، فماذا كانت النتيجة؟، {(فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} وذلكم الأخذ هو أن الله سبحانه وتعالى أغرقه وملئه في البحر ساقه إلى حتفه بخيله ورجله وجنده وأغراه باقتحام البحر خلف بني اسرائيل، حتى إذا تكامل بنو إسرائيل خارجين وتكامل آل فرعون داخلين أمر الله تعالى البحر أن ينطبق عليهم، {وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} [الدخان: ٢٤ – ٢٧] ذلكم هو الأخذ الوبيل، فمن عصا الرسول فهذه عاقبته، ليس لأحد نسب ولا سبب يُدلي به على الله عز وجل بل هي سنن مطردة.

{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}، عاد السياق إلى ذكر اليوم الآخر والتخويف منه.

والعامل في قوله (يومًا) إما (تتقون)، فيكون التقدير فكيف تتقون يوما، ويحتمل أن يكون العامل فيه (كفرتم) يعني إن كفرتم يوما، ولا تعارض بين المعنيين، يمكن أن يكون التقدير (فكيف تتقون يومًا إن كفرتم)، ويمكن أن يكون التقدير (فكيف تتقون إن كفرتم يومًا)، ولا تعارض بينهما فكلاهما محمل حسن.

وهو يوم القيامة فإن ذلك اليوم كما وصف الله عز وجل {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: ٢] فاستذكار ذلك اليوم مهم في إحياء الإيمان في القلوب، وكثير من الناس يقصي التذكير باليوم الآخر، ويبعده عن مخيلته لأنه يريد أن يستمتع، ويتلهى في هذه الدنيا، لكن ما أشبهه بالنعامة التي تدس رأسها في التراب تظن أن الصياد لا يراها. العاقل اللبيب هو الذي يدرك بأن ما هو آت جديرٌ بالاستعداد ودوام الذكرى، وهذا قلقُ مبارك، ليس قلقًا يُنكد العيش، ويصرف الإنسان عن مصالحه، بل هو قلق يحمله على تقوى الله عز وجل، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وحسب، ولهذا لا يحتاج الإنسان من خوف الله تعالى إلا إلى القدر الذي يحجزه عن معاصيه وما زاد فلا حاجة له فيه، بحيث يشعر بالنكد والضيق والاضطراب كلا، كان النبي صلى الله عليه وسلم من أطيب الناس عيشًا، وأهنئهم مجلسًا، مع شدة خوفه وخشيته لربه عز وجل.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله